البغاء في أوربا

للمستر أبراهام فلكسنر

بقلم الأستاذ عبد اللطيف حمدى

سندرس موضوع البغاء فى الصحائف التالية على أساس التجارب العلمية فى الأمم الأوربية . وسينصرف الجهد إلى تحقيق أنواع الدعارة ومدى انتشارها والأسباب التى تزيدها اتساعاً أو تضيق من مجالها ، وإلى تحقيق الجهود التى تبذلها الهيئات المختلفة حيال هذه الرذيلة والوسائل التى اتخذت إما لمحاربتها وإما للاشراف على تنظيمها والنتائج التى أسفرت عنها هذه الجهود

وسيضاف إلى هذه التحقيقات نتائج بحث شخصى وتحريات وملاحظات فى المدن الكبرى من انكلترا وايقوسيا وفرنسا وإيطاليا وسويسرا والسويد وألمانيا والنمسا والمجر وسائر الأقاليم التى يطلق عليها اسم أوربا الغربية والتى يشتد التشابه بين بعضها وبعض فى حياتها الاجتماعية ومُثُلها الوطنية العليا ومعاهدها السياسية

ولكن القوانين فى تلك الأمم نفسها ليست متجانسة المواقف حيال مسألة البغاء ؛ ومن أجل ذلك اختلفت الآثار المترتبة على هذه القوانين بين بعضها وبعض اختلافاً بيناً ، ففى البعض أدت إلى تكبح قوى ، وفى البعض الآخر أدت إلى زيادة انتشار الرذيلة نفسها . على أنه بالرغم من اختلاف هذه المظاهر فقرار هذه الرذيلة متشابه من حيث المنشأ بحيث تصلح الوسيلة المختارة للعلاج فى رأى هذا الكتاب لجميع هاته الأمم ، ولن نتجاهل فى أثناء البحث وجوه الاختلاف وإن تكن وجوه الخلاف نفسها دالة على وجوب اتخاذ وسائل متوافقة لمناهضتها ، فإن البحوث الحديثة أسفرت عن تطابق بين هذه الأسباب إلى درجة أكثر مما كان مفترضاً. فأمر البغاء ينطبق عليه المثل القائل « لا جديد تحت الشمس » أكثر من انطباق هذا المثل على أى أمر آخر . كما دلت الكتب التى خلفتها القرون الوسطى فى شأن البغاء على تطابق عجيب فى حالة هذه الرذيلة بين تلك العصور وبين العصور الحاضرة

وإن وجوه الخلاف التى سبقت الإشارة إليها فى الأمم التى ذكرناها إما بشأن وجوه النظر فيها وإما فى حالة انتشار المرض وإما فى السياسة التى تتبع حيالها — إن وجوه الخلاف هذه آخذة فى سبيل الاضمحلال والتلاشى ، فقد ترتب ما بين مختلف الأمم انتشار الأفكار الديمقراطية وتوطد الحكم الديمقراطى . ولئن اصطحب ذلك تعديل فى القواعد الخلقية ، وبخاصة بعد أن شاع مبدأ التساوى بين الجنسين ، فإن التأمل الحصيف يوجب سلوك مسلك متشابه بين هاته الأمم قائم على اعتبارات إنسانية أساسية ، وإن الذى يدرس هذا الموضوع الخاص الذى نشتغل بدراسته الآن ليدهشه اتفاق المظاهر أكثر مما يسترعى نظره اختلاف البيئات المحلية أو الاعتبارات الأهلية فى موضوع التحقيق الذى بدئ به فى جلاسجو وختم فى بودابست

ومن أهم ما يلاحظه الناظر فى هذا الموضوع عن بعد أن الدعارة فى أوربا الغربية قد تطورت فى مدى القرون القليلة الماضية على نظام واحد بين أممها المختلفة . وليس ذلك بدعاً ، فإن مدى انتشار هذه الرذيلة مرتبط بمقدار اتساع المدن لأنه بعض ظواهر المدنية ، وقد كانت المدن فى أوربا الغربية فى العصور الوسطى كلها مدناً صغيرة . أما المدن الكبرى فى تلك العصور فقد كانت كلها إسلامية ، فقد كان عدد السكان فى كل من القسطنطينية وبغداد والقاهرة يربى على المليون . وكانت كل من اشبيلية وقرطبة تربو فى عدد سكانها على نصف المليون فى حين كانت باريس لا يكاد يصل عدد سكانها إلى ٢٠٠٫٠٠٠ وفينا ٥٠٫٠٠٠ ولوندرا ٣٥٫٠٠٠ وكولونيا ٣٠٫٠٠٠ وهامبورج ١٨٫٠٠٠ ودرسدن ٥٫٠٠٠ . أما المدن التى لا تتصل بمواصلات مائية فلم يكن عدد السكان فى إحداها ليزيد على ٢٥٫٠٠٠ . وكثير جداً من المدن التى تعتبر الآن ذات أهمية لم يكن عدد سكانها فى القرون الوسطى يزيد على ٥٠٠٠ . وما من شك فى أن اتساع المدينة يؤثر فى صبغة مدنيتها وبكيف طبيعتها ، فإذا نظرت إلى تاريخ الدعارة فى أوربا فى القرون الوسطى وجدت أن معظم مدنها إذ ذاك لم يكن إلا قرى يعرف بعض أهلها بعضهم الآخر ، وكان كيان الأسرة لا يزال سليماً . ولقد يقال إنه كان فى المدائن غرباء كالصليبيين والحجاج والجيوش ولكن جموعهم لم تكن كثيفة وعلى أية حال فقد كان الغرباء معروفين كذلك كالأهلين . وكانت الدعارة فى العصور الوسطى ذات نوعين أساسيين : نوع مستوطن ونوع متجول . أما الأول فيشمل العاهرات المقيمات أو المترددات على مساكن معدة للدعارة ، وقد لا تكون الإقامة على صورة نظامية

وهذه البيوت تدعى بالمواخير . وأما النوع الثاني فكان من المتشردات اللواتي يلحقن على سبورة غير رسمية بمعسكرات الجيوش التي كانت في تلك العصور كثيرة التجوال في القارة . أو اللواتي يلحقن كذلك على سورة غير رسمية بالطبع برجال الطوائف الدينية المجتمعين في تجوالهم الموسمي وفاء منهن لنذور نذرنها . ولكن على أية حال فإن العاهرة كانت امرأة موسومة في العصور الوسطى التي امتازت بقلة عدد السكان في مدنها وما كان لينتفي هذا الوسم سواء بين المستوطنات أو المتجولات . وحتى لو أن إحداهن كانت تزاول رذيلتها سراً فسرعان ما تفلوث سمعتها وتوصف بالخطر ، وبخاصة إذا كانت محترفة لأنها في هذه الحالة تكون مميزة بشكل ثيابها ومظهرها ومسكنها وطبيعة حياتها الخارجية ، وكان الفارق في العصور الوسطى شديد الوضوح بين المرأة الشريفة والمرأة العاهرة

أما في العصور الحاضرة فالتناقض بَيِّنٌ من هذه النواحي فالمدن كبيرة وقد أضيفت إليها لأغراض عملية ضواح تقوم منها مقام الحواشي المزركشة ، فالفروق المتعلقة بالكمية بين المدينة في العصور الوسطى وبين المدينة في العصور الحديثة قد رتبت فروقاً متعلقة بالكيفية في أمر البغاء

في أواخر عهد بابل أصبح نظام الأسرة يسمح بأن يتصل بها ألوف من الناس تتفاوت درجات الصداقة بينهم كما يختلف الشعور بالمسئوليات نحوها وفيهم الفتيات والفتيان ومعظمهم في ظروف تقضي على الأخلاق بالانحلال

ولقد أصبحت المدن الكبرى في العصور الحديثة في حالة أشد تعقداً بسبب المهاجرة إلى باريس وبرلين ولوندرا إما للاتجار وإما للهو وإما للشغب

أما في الأوساط الضيقة المحيط فإن كيان الجماعة فيه لا يزال على بساطته ، فأفراد هذا المجتمع معروف بعضهم لبعض ومطالبهم المشتركة ومثلهم الأخلاقية العليا تخضع لتقاليد واحدة أو متقاربة من شأنها أن تسيطر على الأعضاء الضعفاء من هذا المجتمع . وفضلاً عن ذلك فإنه مهما يكن وصف هؤلاء الأفراد فإن بعضهم معروف لبعض

وأما في المدن الحديثة ، وكل منها بابل عصرية وهي التي أتحدث عنها الآن ، فإن الفرد فيها لا يعرف جيرانه الأدنين . وهنا تشتد وسائل الإغراء بقدر ما تضعف وسائل الكبح والمنع فالأحوال ليست تقف عند الحد الذي يقل فيه الشعور بالمسئولية بل قد تصل إلى حد ارتفاع هذا الشعور

ومن هذا يتبين أن مجرد زيادة العدد في مدينة من شأنه أن يقلل إمكان التقسيم بين رجالها ونسائها إلى طبقات من حيث العفة أو الرذيلة . ومن شأنه أيضاً تجهيل ماضيهم الخلقي وهذا فارق أساسي عظيم في موضوع الدعارة بين العصور الوسطى وبين العصر الحاضر ، فقد كانت في العصور الوسطى محدودة واضحة وهي الآن لا بالواضحة ولا المحدودة

وثمت حقائق لها من الوجهة العملية أهمية لا يستطاع جحودها فالمدينة التي فيها ثلاثون امرأة عاهرة وعدد سكانها ٣٫٠٠٠ تبدو كأن النسبة متجانسة فيها مع المدينة التي فيها من العاهرات خمسة آلاف وعدد سكانها نصف مليون . وذلك لأن النسبة المئوية في الحالتين هي واحدة في المائة . ولكن ضخامة العدد على الرغم من الاحتفاظ بالنسبة المئوية تؤدي إلى خلاف جسيم بين أمر الدعارة في المدينتين ، فإن الاجراء الذي يتخذ لمناهضة الدعارة ضد ثلاثين عاهرة فينجح لا بد من حبوطه إذا هو اتخذ ضد خمسة آلاف عاهرة في مدينة كبيرة . وكذلك تتغير المسألة من النواحي الاقتصادية والإدارية والصحية إذا زاد العدد على حد معين

(يتبع) ترجمة عبد اللطيف محمدي